مصر ومصير المستعمرات الايطالية

كانت مسألة المستعمرات الإيطالية فى مقدمة المسائل التى ثار بشأنها الجدل واضطرم حولها الخلاف ، فى مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى ، الذى اجتمع فى شهر سبتمبر الماضى ليضع شروط الصلح مع إيطاليا وباقى الدول الصغرى التى كانت محالفة للمحور خلال الحرب . وكانت إيطاليا وما زالت ترقب مصير مستعمراتها فى لهفة وجزع ، وقد لمحت فيما يبدو بارقة أمل ، من جراء هذا الخلاف الذى نشب بين الدول الكبرى ، فى استرداد مستعمراتها بصورة ما ، فهى تعمل اليوم بكل ما وسعت لتحقيق هذه الغاية ، وهى تحاول أن تستغل مابدا من عطف الدول الكبرى عليها وسعيهم إلى التمهيد لقبولها عضواً فى هيئة الأمم المتحدة . وقد بذلت أخيراً فى هذا السبيل مجهوداً جديداً تحاول به أن تفتدى مستعمراتها السابقة ببعض العروض الإقليمية فى أوربا ، فقدمت إلى الحكومة الأمريكية مذكرة تعرض فيها استعدادها للتخلى عن جزر الدودكانيز إلى اليونان مع وضع جزيرة رودس تحت نظام خاص ، ومنح إقليم التيرول الجنوبى استقلالا ذاتيًا ، وجعل تريستا ميناء دوليًا مع بقائها تحت سيادة إيطاليا ، والتخلى ليوجوسلافيا عن ثغرى فيومى وزارا ، ومنح ألبانيا استقلالها التام ، كما عرضت إيطاليا استرضاء لفرنسا تعديل حدودها من ناحية الألب والنزول عن كل مطلب لها فى تونس ، وذلك كله على أن تسترد إيطاليا مستعمراتها السابقة ولا سيما طرابلس وأرتريا .

ونحن نذكر خلاصة الآراء والمطالب التى عرضت على مؤتمر وزراء الخارجية بشأن المستعمرات الإيطالية . فقد اقترح البعض أن تقوم بإدارتها هيئة مشتركة من الدول الكبرى تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة . واقترح البعض الآخر أن يعهد بهذه الإدارة إلى إيطاليا ذاتها على أن تكون أيضاً تحت إشراف الأمم المتحدة . وفاجأت روسيا المؤتمر بطلبها أن يكون لها هذا الإشراف على طرابلس

وأرتريا ، ورفضت بريطانيا العظمى بالطبع كل هذه الاقتراحات . وشعرت مصر بأن لها فى هذه المسألة مصلحة جوهرية فتقدمت إلى المؤتمر بمذكرة تبسط فيها رأيها فيما يتعلق بمسألة لوبية ، وهو أن يستفتى أهلها فى مصيرهم ، فإذا رأت الدول المتحدة أنه لا بد من وضعها تحت الوصاية فمصر أولى بهذه الوصاية نظراً لما يربطها بها من جوار مباشر وأواصر تاريخية وثيقة . وهكذا تضاربت الآراء وتشعبت ، وانفض المؤتمر دون أن يقضى بأمر فى مشروع الصلح مع إيطاليا أو مصير المستعمرات الإيطالية .

وقد أثار تدخل مصر فى مسألة المستعمرات الإيطالية على هذا النحو بعض تعليقات خارجية يمازجها الإنكار والدهشة ، وهى تعليقات تنم عن جهل بالحقائق التاريخية والسياسية والاعتبارات القومية الخطيرة التى أملت على مصر موقفها . والواقع أن مصر بوقوفها عند التدخل فى مسألة لوبية تقصّر فى حق نفسها وتنسى الكثير من حقوقها التاريخية ، فى إمبراطورية إيطاليا الاستعمارية .

***

ذلك أن إمبراطورية إيطاليا الاستعمارية لم تقم فى شرق إفريقية الا بطريق الاعتداء على الأملاك المصرية. فقد كانت مصوّع التى كانت حجر الزاوية فى بناء هذه الإمبراطورية إلى جانب سواكن مقاطعة مصرية ضمن حدود السودان المصرى منذ عهد محمد على، حصل عليهما محمد على أولاً من السلطان بطريق الإيجار باعتبارهما المنفذ الطبيعى للسودان على البحر الأحمر ثم رأى إسماعيل أن يعمل على ضمهما إلى أملاك مصر نهائيًا فاستصدر بذلك فرماناً من السلطان سنة ١٨٦٦ وأصبحتا من ذلك التاريخ من أملاك مصر . وازدهرت مصوع فى ظل الحكم المصرى ، وأنفقت مصر أموالا عظيمة فى تعميرها وتجهيز ثغرها بالمنشآت البحرية العظيمة ، واستمرت تحت الحكم المصرى حتى قامت الثورة المهدية فى السودان ، وأرغمت مصر على إخلاء السودان وملحقاته فى سنه ١٨٨٤

وفى سنة ١٨٧٥ استطاع إسماعيل أن يستصدر فرماناً من السلطان بالنزول لمصر عن زيلع وبربرة ثغرى الصومال الواقعين على البحر الأحمر ، وذلك مقابل زيادة فى الجزية السنوية التى تؤديها مصر للدولة العثمانيه مقدارها خمسة عشر ألف

جنيه عثمانى ، وجعل إسماعيل منهما محافظتين مصريتين بقيتا تحت حكم مصر حتى سنة ١٨٨٥ .

وفى تلك الآونة بالذات ، وهى الآونة التى حاقت فيها المحن بمصر ، وأخذت إمبراطوريتها الإفريقية تنهار تباعاً تحت ضغط السياسة الإنجليزية ومطامع الدول الأوربية ، رأت إيطاليا الفرصة سانحة للنزول إلى الميدان الاستعمارى . وكانت إيطاليا يومئذ حديثة عهد بالوحدة والحرية والاستقلال ، ومع ذلك فقد كانت تضطرم بنزعة استعمارية عنيفة . وكان وزيرها الشهير « كرسبى » يحلم بأن ينشئ لإيطاليا الفتاة إمبراطورية استعمارية عظيمة على غرار الدول الكبرى . وبدأت إيطاليا تنفيذ برنامجها الاستعمارى منذ سنة ١٨٨٠ إذ بدأت باحتلال الصومال واستمرت فى احتلاله تباعا . وفى سنة ١٨٨٢ احتلت بقعة فى أرتريا ما بين الحبشة ومصوع وأنشأت بها مستعمرة إيطالية صغيرة . ولما اضطرت مصر بضغط السياسة الإنجليزية عقب الثورة المهدية إلى إخلاء ثغر مصوع وملحقاته بادرت إيطاليا باحتلاله بموافقة انجلترا . وهكذا كان حلولها فى مصوع عمل اغتصاب غير مشروع لم تقره مصر قط . وانتهزت انجلترا نفس الفرصة السانحة فاحتلت من جانبها ثغرى زيلع وبربرة اللذين أرغمت مصر على إخلائهما فى نفس الوقت ، وأنشأت انجلترا منهما ومن الأراضى التابعة لهما مستعمرة الصومال البريطانى .

وأخذت إيطاليا من ذلك الحين تطمح إلى احتلال الحبشة وتجاهر بادعاء حق الحماية عليها . ولكن الحبشة استطاعت بقيادة عاهلها منليك الثانى أن تلقى عليها درسا مؤلما فى موقعة عدوة الشهيرة (سنة ١٨٩٥) التى أصيبت فيها القوات الايطالية بهزيمة ساحقة ، واضطرت إيطاليا أن تعترف بوحدة الحبشة واستقلالها وأن ترجىء مشاريعها الاستعمارية الغادرة إلى حين .

وفى سنة ١٩١١ أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا بحجة اعتدائها على حقوق الرعايا الايطاليين فى طرابلس ، وأعلنت ضم برقة وطرابلس إليها بعد حرب قصيرة الأمد ، واضطرت تركيا أن تصادق على هذا الضم بمقتضى معاهدة أوشى (١٩١٢) لأنها كانت تواجه فى ذلك الحين خطر اعتداء الدول البلقانية عليها . بيد أن إيطاليا لم تستطع أن توطد أقدامها فى برقة وطرابلس إلا بعد ذلك بنحو عشرين عاما ، إذ لبث الشعب الليبى يقاومها ببسالة وجلد ويحصر المستعمرين

المغيرين فى المنطقة الساحلية ، ولم يتح لها الاستقرار إلا حينما لجأت الحكومة الفاشستية إلى أساليبها الوحشية العنيفة فى سحق مقاومة العرب واغتصاب أراضيهم وأموالهم وأقواتهم .

وفى سنة ١٩٢٥ استطاعت إيطاليا بمؤازرة السياسة الإنجليزية أن تعدّل حدودها فى برقة على حساب مصر وأن تستولى على واحة جغبوب التى لبثت عصوراً قطعة من الأراضى المصرية .

ثم كانت المرحلة الثانية فى توسيع إيطاليا الاستعمارى فى ظل السياسة الفاشستية العنيفة ، فكان اعتداء إيطاليا على الحبشة فى سنة ١٩٣٦ أفظع مثل لسياسة العدوان والغدر التى جرت عليها السياسة الإيطالية الاستعمارية فى جميع أدوارها . وعقب ذلك اعتداء إيطاليا على ألبانيا واحتلالها سنة ١٩٣٩ .

وقد شاء القدر أن تلقى إيطاليا جزاءها العادل فى الحرب العالمية الثانية ، حيث فقدت إمبراطوريتها الاستعمارية وحقت عليها الهزيمة الساحقة ، وأرغمت على أن تستسلم لأعدائها الظافرين دون قيد ولا شرط .

على أن إيطاليا تشعر اليوم أن أعداءها السابقين قد أخذوا يعاملونها بشىء من الرفق لقاء ما قدمته فى المرحلة الأخيرة من الحرب من معاونة للحلفاء ضد ألمانيا حليفتها السابقة ، وهى لذلك تؤمل أن تكون شروط الصلح التى ستفرض عليها مطبوعة بطابع الاعتدال ، وهى تتطلع فوق ذلك إلى استرداد مستعمراتها السابقة ، وتبذل فى هذا السبيل كل ما وسعت من جهود .

* * *

تلك هى المراحل والظروف التى أحاطت بقيام إمبراطورية إيطاليا الاستعمارية ثم انهيارها .

ومن الواضح أن لمصر وسودانها حقوقا تاريخية على القسم الشرقى من هذه الإمبراطورية التى بدأت باغتصاب الأملاك المصرية فى مصوّع حسبما قدمنا .

وهناك غير الحقوق التاريخية اعتبارات قومية وسياسية وعسكرية لا يسع مصر أن تغضى عنها .

ذلك أن المستعمرات الإيطالية السابقة تجاور وادى النيل من الشرق ومن الغرب . وقد أثبتت تجارب الحرب العالمية الثانية أن وجود دولة معادية جشعة

مثل إيطاليا فى هذه المناطق خطر على مصر والسودان ، وأن الاستعمار الإيطالى يعتبر وجوده فيها قواعد للوثوب على ما يجاورها من البلاد . وهذا ما أيدته الحوادث حينما غزت إيطاليا الحبشة ، وحينما حاولت غزو السودان بعد ذلك فى الحرب المنقضية .

وأما عن لوبية (برقة وطرابلس) فقد ثبت أن وجود إيطاليا فيها أشد ما يهدد مصر فى استقلالها وكيانها . وفى لوبية لبثت إيطاليا الفاشستية أعواما تدبر خطط الاعتداء على مصر وتحشد القوى الجرارة لتنفيذ مشروعها الغادر ومن برقة زحفت القوات الإيطالية لغزو مصر فى سبتمبر سنة ١٩٤٠ والقوات الألمانية والايطالية فى صيف سنة ١٩٤٢ ، وشهدت مصر يومئذ مصايرها تهتز فى يد القدر أمام هذا العدوان المدبر . وقد أثبتت تطورات الحرب الحديثة أن الصحراء لم تعد كما كانت فى العصور الغابرة درعا يقى مصر شر العدوان المفاجىء ؛ وإذن فليس فى وسع مصر ، وقد ثبت جليا أن برقة هى خط الدفاع الأول عن سلامتها ، أن تطمئن إلى وجود أية دولة معادية فى تلك المنطقة وخصوصا إيطاليا التى قدمت غير دليل على تجنيها وغدرها المتكرر .

والخلاصة أنه يحق لمصر ، لاعتبارات سياسية وجغرافية وعسكرية واضحة ، أن تشعر بأن مستعمرات إيطاليا السابقة ولا سيما أرتريا ولوبية تقع فيما يمكن أن نسميه منطقة السلامة المصرية . ومن حقها بناء على ذلك أن تبدى اهتمامها بمصير المستعمرات الايطالية ، وألا تقف جامدة إزاء الجهود التى تبذل لتقرير مصيرها

وقد أحسنت مصر إذ تقدمت بمذكرتها الخاصة بمستقبل لوبية إلى مؤتمر وزراء الخارجية . ونظرية مصر فى شأنها بسيطة واضحة ، فهى تطلب إما استفتاء أهل لوبية فى مصيرهم تطبيقاً لما نص عليه ميثاق الإطلنطى ودستور الأمم المتحدة ، وإما منح الوصاية عليها لمصر إذا رأت هيئة الأمم المتحدة ضرورة وضعها تحت الوصاية ، وذلك لما يربط بين الأمتين من روابط وثيقة فى الدين واللغة والجوار المباشر . ومصر لا تصدر فى ذلك عن أية نزعة أو غاية استعمارية ، وإنما ترمى إلى صون مصالح جيرانها من العرب وصون مصالحها هى أيضاً وتأمين سلامتها التى يهددها عود الاستعمار الايطالى إلى هذه المنطقة .

غير أن مصر يجب ألا تقف عند هذا الحد المتواضع من الاهتمام بمصير المستعمرات الإيطالية . فهناك مسألة أرتريا وثغر مصوع . وهى باعتبارها من

أملاك مصر السابقة ومن ملحقات السودان ، ولكونها تعتبر من الناحية الجغرافية منفذ السودان على البحر الأحمر، يجب أن يسمع فيها صوت مصر أيضاً . وإذا كانت مصر لا تفكر فى المطالبة بضم أراض جديدة إليها فان مقتضيات الإنصاف والعدالة تقضى بأن تعاد منطقة مصوع إلى السودان كما كانت أيام اسماعيل ، وسلامة السودان ووادى النيل تقضى بألا يعود الاستعمار الايطالى إلى تلك المنطقة حتى لا يهدد فيها الأمن والسلامة مرة أخرى .

* * *

وقد يكون من الغريب المدهش أن تطالب روسيا بالوصاية على لوبية وأرتريا وهى بعيدة كل البعد عن هذه المناطق وليست لها فيها أية مصلحة مباشرة ، ثم لا تجد مصر من يصغى إليها من الدول إذا هى تقدمت باقتراحاتها المعقولة فى شأن لوبية مع ما يربطها بها من أواصر الجيرة والمصلحة الوثيقة . والمفروض أن مصير المستعمرات الايطالية سوف ينظر فيه على ضوء النصوص الخاصة بالأقاليم التى توضع تحت الوصاية من دستور هيئة الأمم المتحدة ، وأن هذه المستعمرات تدخل فى حكم النوع الثانى من الأقاليم التى تخضع للوصاية ، وهى الأقاليم التى تقتطع من دول الأعداء نتيجة لهزيمتها . غير أنه يبدو من جهة أخرى أن مصير المستعمرات الايطالية سيكون موضع المساومة بين الدول الكبرى ، وإن كان من المتوقع أن بريطانيا العظمى لا يمكن أن تسمح بأى حال أن تخرج الوصاية على لوبية من يدها . وأما أرتريا فان مصيرها يبدو أكثر غموضا . والمفهوم أن للولايات المتحدة اقتراحات خاصة بجعل ثغر مصوع منطقة دولية حرة ، وأنها تؤيد بريطانيا فى رفض كل مطلب روسى خاص بأرتريا .

إن البت فى مصير المستعمرات الايطالية سيكون تجربة عملية لتطبيق ناحية من نواحى ميثاق الأمم المتحدة . وسنرى أتسفر هذه التجربة عن حلول جديدة تتفق مع ما سجلته المواثيق الدولية من مبادئ الانصاف والعدالة . على أن أكبر ما نخشاه هو أن نشهد مأساة الانتداب القديمة فى صورة جديدة ، وألا يعدو الأمر توزيع الغنائم والأسلاب بين الدول الاستعمارية .

محمد عبد الله عنانه